

علي الحمامي الجزائري ونضاله التحرري في العالم العربي والإسلامي (1902-1949)¹.

 الدكتور قاصري محمد السعيد

أستاذ محاضر بقسم التاريخ جامعة محمد بوضياف بالمسيلة الجزائرية.



مقدمة: سأفتح هذا المقال بما كتبه صديقه ورفيقه في النضال التحرري محي الدين القليبي² في جريدة البصائر بقوله: «لا يمكن أن تُحصي في هذه العجالة ما قام به لفائدة المغرب الإسلامي ولا ما بذله في الدفاع عنه من وقت وجهد ومال وما لاقاه في سبيل ذلك من الأهوال، فقد عاش طيلة ثلث قرن مُشرداً عن وطنه وأهله بدون مقر يأمن فيه مطاردة البوليس الاستعماري ولا عائلة يأوي زمن المرض والحاجة إليها، ولا أمة تُعرف قيمته وتُقدّر مواهبه فتستفيد منها، بقي كاللغز والسّر المكتوم لا يعرفه إلا القليل ممن لهم دراية بقيم الرجال»³. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى وأنا بصدد تحرير هذا المقال طالعنا جريدة الشروق اليومي بمقال للأستاذ محمد الهادي الحسني عن الحمامي تحت عنوان "مفخرة مجهولة.. وثرية ضائعة"⁴، حيث حاول فيه ملامسة بعض الجوانب المتعلقة بالحمامي معتمداً في ذلك على جريدة البصائر التي تطرقت في بعض أعدادها إلى هذا الكنز المدفون، وهو ما زادنا إصراراً وعزماً على تبيين هذه الالتفاتة الطيبة بمقال تاريخي اعتمدنا فيه على جملة من المصادر كجريدة البصائر الناطقة باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وجريدة العلم المغربية لسان حال حزب الاستقلال، وكتاب المناضل المغربي الطيب بنونة الموسوم بـ "نضالنا القومي في

¹ - أهدي هذا المقال المتواضع إلى روح أخي وصديقي ورفيق دربي الأستاذ الفقيه العزيز لعيميد عبد العزيز، رحمه الله، وإلى جميع أفراد عائلته الذين استشهدوا معه في حادثة الاختناق بغاز CO التي تعرض لها بمقر سكنه ببلدية المحمل بولاية خنشلة في شتاء 17 جانفي 2017، ولما أعرفه من تقدير المرحوم لهؤلاء المناضلين الجزائريين، الذي كانوا يحملون فكرة النضال التحرري المغربي، وصالوا وجالوا في مشارق الأرض ومغاربها لخدمة أمتهم العربية والإسلامية، أهدي له هذا المقال وأتمنى أنني كنت موفقاً في اختياري له.

² - هو محمد محي الدين القليبي ولد بتونس سنة 1899، يعد من رموز الحركة الوطنية والنضال الإعلامي في المغرب العربي، كان يكتب في العديد من الجرائد والمجلات التونسية باسم مستعار هو عصام، وفي سنة 1923 خلف الثعالبي في إدارة الحزب الدستوري الحر أثناء رحيله إلى المشرق؛ زار الجزائر في فترة الثلاثينيات، وكان على صلة وثيقة بأحمد توفيق المدني، وعلى اثر الأزمة التي عرفتها تونس سنة 1934 اعتقلته السلطات الاستعمارية، غير أنه ما لبث أن هاجر إلى المشرق ومكث هناك إلى غاية وفاته بدمشق سنة 1954. معلومات أفادنا بها الأستاذ خليفي عبد القادر من قسم التاريخ بجامعة المسيلة؛ وهو مشكوراً على ذلك.

³ - محي الدين، القليبي: ((الأستاذ علي الحمامي))، البصائر، ع. 100، السنة 3 من السلسلة الثانية، يوم الاثنين 7 ربيع الأول 1369هـ / 26 ديسمبر 1849، ط. 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1427هـ / 2006م، ص. 87.

⁴ - محمد الهادي، الحسني: ((مفخرة مجهولة.. وثرية ضائعة))، الشروق اليومي، ع. 2834، يوم الخميس 12 صفر 1431هـ / 28 جانفي 2010م، مؤسسة الشروق للإعلام والنشر، الجزائر، ص. 21.

الرسائل المتبادلة بين الأمير شكيب أرسلان والحاج عبد السام بنونة" الذي سمحت لنا ظروف البحث بالعثور عليه في خزانة الكتب المغربية أثناء مقامنا بالمغرب في شهر جويلية 2006. وهو مصدر نادر أعتقد أنه سيميط اللثام بشكل كبير عن هذه الشخصية الجزائرية المغمورة، كونه اشتمل على عدة رسائل تطرقت العديد منها إلى وضعية الحمامي في الفترة الممتدة من سنة 1931-1934.

وبناء على هذه الافتتاحية سنحاول من خلال هذا المقال التعريف بالأستاذ علي الحمامي والوقوف على أهم نشاطاته في سبيل مناهضة الاستعمار الفرنسي؛ ونفض غبار الغفلة والنسيان عن هذا العالم والمفكر والمناضل الجزائري، وتعريف الجيل الحاضر به وبنضاله التحرري عبر العالم العربي والإسلامي؛ وهذا ما سنعرفه من خلال العناصر الآتية:

1- مولده ونشأته. حسب رواية علال الفاسي (1907-1974)⁵ يكون الحمامي قد ولد بمدينة تيارت في سنة 1320هـ / 1902م من أب ريفي من جبل الحمام وأم سوسية، ثم هاجر مع والده إلى المشرق وهو صغير حيث أقام بالإسكندرية وتعلم في مدارس الفرنسيين ولما وصل سن الشباب عاد إلى الوطن⁶؛ غير أن محي الدين القليبي يرى أن الحمامي نشأ وتعلم بمسقط رأسه؛ ثم هاجرت عائلته إلى الإسكندرية فأقام بها ردحا من الزمن، ثم رجع إلى الجزائر وواصل تعليمه حتى نبغ فيما تعاطاه من صنوف المعرفة⁷. ويقدم لنا الدكتور أبو عمران الشيخ⁸ من جهته رواية مغايرة تماما لهاتين الروايتين والتي مفادها: «إنه عاش بمدينة تيارت وعندما بلغ عمره 20 سنة قررت عائلته التوجه لأداء فريضة الحج فرافقها إلى الحجاز؛ لكنه لم يعد إلى الجزائر بعد هذا التاريخ كونه كان من الراضين لسياسة الاستعمار الفرنسي الذي يسيطر على وطنه. فأخذ يتجول عبر العالم مشغلا في باخرة تجارية، وفي هذه الفترة من حياته نمت ثقافته بصفة عامة واطلع على آثار ابن خلدون بصفة خاصة»⁹.

وما يمكن ملاحظته حول هذه الروايات هو أنها متفقة على مكان وتاريخ ميلاده غير أنها مختلفة حول نشأته وتعلمه وتاريخ مغادرته لمدينة تيارت باتجاه المشرق، ولكن بالنظر إلى تاريخ ميلاده سنة 1902 ومشاركته فيما بعد إلى جانب كل من الأمير عبد المالك الجزائري (استشهد سنة 1924)¹⁰

⁵ - سياسي وأديب مغربي، أسس حزب الاستقلال، اشتهر بمقاومة الاستعمار الفرنسي والإسباني في المغرب، يراجع: المنجد في اللغة والأعلام، ص. 377.

⁶ - علال، الفاسي: (نبذة عن حياة علي الحمامي)، العلم، ع. 1024، الصادر في 21 ديسمبر 1949م.

⁷ - محي الدين القليبي: المصدر السابق، ص. 87.

⁸ - أستاذ شرقي بجامعة الجزائر، له إنتاج علمي معتبر: قضايا في الثقافة والتاريخ، معجم مشاهير المغاربة.. الخ، تولى عدة وظائف ومناصب عليا في جهاز الدولة من أهمها: رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى، وهو لا يزال على قيد الحياة.

⁹ - معجم مشاهير المغاربة، المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1995، الجزائر، ص. 167.

¹⁰ - ولد بدمشق سنة 1285هـ / 1868م، وبها نشأ وتعلم، أشرف على دراسته وتربيته جمع غفير من العلماء من بينهم: الشيخ طاهر الجزائري، والشيخ عبد الرزاق البيطار، واصل دراسته في المدرسة المالكية بالآستانة، وهو ما أهله فيما بعد للالتحاق بالمدرسة الحربية في

أثناء ثورته بالمغرب لمناهضة الاستعمار الفرنسي، وعبد الكريم الخطابي (ت 1382هـ-1963)¹¹ في حرب الريف يكون سن الحمامي آنذاك حوالي 22 سنة؛ وهو ما يجعلنا نستبعد رواية أبو عمران الشيخ الذي يرى أن انتقال عائلة الحمامي إلى المشرق بعدما بلغ ابنها 20 سنة وهو ما يوافق سنة 1922، وعليه فإننا سنأخذ برواية كل من علال الفاسي ومحي الدين القليبي مع الاعتراف بعدم قدرتنا على تحديد تاريخ هجرة عائلته نحو المشرق ومكان تعلمه ونبوغه هل تم بالمشرق أم بالجزائر؟ أم بهما معا؟. وهذا ما سي طرح لنا إشكال آخر: هل الحمامي عاد إلى الجزائر بعد رحلته إلى المشرق حسب محي الدين القليبي أم لم يعد إليها إطلاقا حسب أبو عمران الشيخ؟ وهذا الإشكال سنحجب عنه في وقت لاحق.

وفي ظل هذا التضارب في المعلومات الذي نتمنى أن تُفصح عنه الوثائق التاريخية في المستقبل؛ يكون الحمامي قد توفرت لديه معلومات كافية على أحوال العالم العربي والإسلامي؛ سواء كان ذلك من خلال جولاته عبر العالم ضمن الباخرة التي كان يشتغل بها حسب أبو عمران الشيخ أو من خلال معاشته للمستعمر الفرنسي بالجزائر بعد عودته من الإسكندرية حسب ما ذهب إليه كل من القليبي والفاسي؛ وعليه ففي هذه الأثناء تكون قد تولدت لديه رغبة كبيرة في العمل الثوري الوطني؛ فما إن وصلتته أخبار ثورة الأمير عبد المالك الجزائري (ت 1924) بالمغرب الأقصى حتى التحق به وهذا ما سنعرفه في العنصر الموالي:

استانبول، ونظرا لنجابه وحيويته لفت انتباه السلطان العثماني عبد الحميد الثاني فقربه إليه في الوقت الذي كان عبد المالك يكن له احترام كبير تزوج قبل أن يتخرج من الكلية العسكرية بالسيدة كريمة الشريف عبد اللطيف العجلاني، أنجب منها 4 أبناء. ثم انتقل بعد تخرجه إلى مسقط رأسه بعدما ترك زوجته وأولاده باستانبول؛ ومنذ ذلك الحين شد رحاله برا نحو المغرب مرور بمصر وليبيا، ثم سرعان ما نجده يظهر بعد ذلك بمدينة فاس التي انطلق منها في إعلان ثورته ضد الفرنسيين. يراجع: أبو القاسم، سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج. 1، ص. 107، ج. 4، ص. 117، بديعة، الحسني: أصحاب الميمنة إن شاء الله، ص. 406-429، أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 5، ص. 527، 563، عادل، نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص. 104، سهيل، الخالدي: الإشعاع المغربي في المشرق، ص. 261،

¹¹ - هو محمد بن عبد الكريم الخطابي، ولد في بلدة أجدير قرب الحسيمة من الريف سنة 1299هـ/1882م، ينحدر من قبيلة ورياغل؛ حفظ القرآن الكريم مسقط رأسه، زاول تعليمه بالقرويين، ثم عاد إلى مسقط رأسه، وأقام بمدينة مليلة، التي تولى بها منصب القضاء، وعندما زحف الإسبان على مدينة شفشاون أظهر والده معارضته لهم، فقاموا بعزل ابنه من منصب القضاء واعتقاله، وبعد محاولته الفاشلة في الهروب من السجن، تكون السلطات الإسبانية قد أطلقت سراحه بعد ذلك، لكنه سرعان ما أصبح من المقاومين لهم، حيث قاد ضدهم عدة معارك بمنطقة الريف، لكنه استسلم في نهاية المطاف للفرنسيين في 12 ذي القعدة 1344هـ/ 25 ماي 1926م، الذين قاموا بنفيه إلى جزيرة رينون بالجزر الهندية، التي مكث بها حوالي 20 سنة، وعندما أرادت السلطات الفرنسية نقلهم إلى باريس سنة 1366هـ/ 1947م، عبر قناة السويس، يكون قد استقر به المقام بالقاهرة، ترأس مكتب المغرب العربي بالقاهرة سنة 1948، وظل بمصر إلى أن وافته المنية بها سنة 1382هـ/ 1963م. يراجع: خير الدين، الزركلي: الأعلام، مج. 6، ص. 216-217. كرم البستاني وآخرون: المنجد في اللغة والأعلام، ص. 367.

2-التحاقه بثورة الأمير عبد المالك الجزائري بالمغرب الأقصى: لم نقف على تاريخ التحاق الحمامي بالأمر عبد المالك أثناء ثورته بالمغرب؛ غير أنه بالرجوع إلى الفارق الزمني بين تاريخ ميلاده سنة 1902 وتاريخ استشهاد الأمير عبد المالك سنة 1924 يكون الحمامي قد بلغ من العمر 22 سنة، وما نستخلصه من هذا السن هو أن التحاق الحمامي بعبد المالك من غير المستبعد أن يكون في وقت متأخر جدا قد يكون في حدود سنة 1922. وعليه فما هو موقع أو دور الحمامي كشاب في مستقبل العمر في ثورة الأمير عبد المالك بالمغرب؟، وخاصة إذا كنا نعلم أن الحمامي قد تبني أفكار بعض السياسيين كعمر راسم¹² والأمير خالد بالجزائر¹³.

وبناء على التكوين الذي يكون قد تلقاه الحمامي بالمشرق في المدارس الفرنسية حسب علال الفاسي أو بالجزائر حسب محي الدين القليبي يجعلنا لا نستبعد استفادة عبد المالك من الحمامي استفادة فكرية وأدبية، فبحكم إتقان الحمامي للغة الفرنسية واللغة الإسبانية-لا ندري متى تعلم الإسبانية بالضبط-يكون قد وظّفه في عملية التواصل الجارية بينه وبين الأطراف الأجنبية آنذاك كفرنسا وإسبانيا من خلال قراءة مراسلات هاتين الدولتين وترجمتها أو كتابة تقارير أو ردود فعل حولها ثم رفعها لعبد المالك الذي سيرد بدوره عليها؛ مع ملاحظة أن الأمير عبد المالك كان يُتقن هو الآخر اللغة الفرنسية، أو ربما يكون قد جنّده في صفوف الجيش الذي كان تحت تصرفه؛ وهذا الاحتمال الأخير اهتدينا إليه من ما ذكره القليبي بشأن الحمامي: «ومجيد الرماية بالسلاح...شارك في ثورة ابن عبد المالك في المغرب وحارب في صفوف مجاهديها»¹⁴، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى ونظرا لمساهمة الحمامي في العمل الصحفي الذي بدأه مع "فكتور سبيلمان Victor Spielmann"¹⁵ الذي يقول عنه: «هو ذلك الرجل الذي أخلص في الدفاع عن الجزائر

¹² - أحمد، عميراي: مواقف نضالية وإصلاحية، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009، ص. 88.

¹³ - أحمد، عميراي: الأمير خالد وخطاب الحركة الوطنية الجزائرية (1830-1930)، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، ص. 85.

¹⁴ - محي الدين القليبي: المصدر السابق، ص. 88.

¹⁵ - هو أحد أبناء المعمرين الفرنسيين الذين انتقلوا إلى مدينة برج بوعريّيج سنة 1877 وعمره 11 سنة؛ -لقد حصر لنا عبد الحميد زوزو تاريخ ميلاد سبيلمان ووفاته فيما بين (1877-1935)، غير أن ما أفادنا به الأستاذ بيرم كمال المتخصص في تاريخ الحظنة هو خلاف ذلك أي بين (1866-1938) -وبعد وفاة والده سنة 1897 صادرت الإدارة الاستعمارية أملاكه بعد إفلاسه؛ فكان هذا بداية لثورة سبيلمان على النظام الاستعماري والدفاع عن الأهالي . وبعد سبيلمان الصحفي والكاتب من رواد الحركة الشيوعية الفرنسية خلال بداية القرن 20، فمع مطلع سنة 1902 يكون قد اهتم بشؤون منطقة الحظنة والبرج وشكّل لذلك عدة صحف محلية مثل صحيفة صدى عين تاغروت *l'echo d'Ain Zagrouit* " وصرخة المضارب العليا " *le cri des haut Plateaux* " ثم مستقبل برج بوعريّيج. وفي سنة 1906 تعاون مع الاشتراكي الإنساني "فولبيار *Vulpillieres*" في صحيفة الهلال "le croissant" وحارب قانون الأهالي، وفي سنة 1910 تعاون سبيلمان مع الجزائريين كالصادق دندان في جريدة الإسلام التي تمثل النخبة الجزائرية؛ وأصبح بين سنتي 1912-1914 مراسل الغرب القسنطيني لجريدة صرخة الجزائر. كما يعد من أصدقاء الأمير

إلى حد تجاوز فيه ما وقف عنده أدعياء الصداقة وحماة الإنسانية»¹⁶. فنحن لا نستبعد أن يكون الحمامي بخبرته الصحفية قد استفاد منه عبد المالك إعلاميا في الحرب الدائرة بينه وبين الفرنسيين في المغرب.

وفي ظل الحرب التحريرية الدائرة رحاها ضد الاستعمار الأوربي في المغرب بقيادة عبد المالك والخطابي، ونظرا لسياسة فرق تسد التي باشرتها فرنسا بين هاذين البطلين: عبد المالك ضد فرنسا والخطابي ضد إسبانيا؛ وعدم توحيدهما جبهة القتال الشيء الذي دفع بالحمامي دون شك إلى القيام بمحاولات لرأب هذا الصدع غير أن محاولته باءت بالفشل، مما دفع بالحمامي إلى الالتحاق بالخطابي ويرر لنا علال الفاسي هذا السلوك بوقوف الحمامي على عدم إخلاص عبد المالك الذي كان على اتصال مع الإسبان¹⁷. إلا أن الحمامي بعدما التحق بالخطابي لم يمكث عنده وقتا طويلا¹⁸، فهل يمكن القول أنه وقف على عدم إخلاص الخطابي الذي كان على اتصال مع الفرنسيين؟!.

وتفاديا للخوض في مثل هذه القراءات التاريخية ومبرراتها؛ يمكننا القول أن الحمامي سرعان ما غادر المغرب الأقصى باتجاه العاصمة الفرنسية باريس؛ وقبل الحديث عن هذه النقطة أود الإشارة إلى أن صلة الحمامي بـ"فكتور سبيلمان" المعمر الفرنسي المقيم آنذاك بالجزائر من خلال النشاط الصحفي الذي يعترف فيه الحمامي بأنه بدأه مع "سبيلمان" يجعلنا نقر بعودة الحمامي في وقت مبكر من المشرق بعد هجرة عائلته نحو الحجاز، وتعليمه وفترة شبابه قضاهما بالجزائر وليس بالمشرق.

3- انتقاله إلى فرنسا ومساهمته في تأسيس نجم شمال إفريقيا سنة 1926: على اثر انتقاله إلى فرنسا يكون الحمامي قد اتصل بالأمير خالد (ت 1355هـ / 1963م)¹⁹. وشارك معه في الحركة التي

خالد ومعاونه السياسي، ثم أصبح الوساطة بين الجزائريين والفرنسيين مما دعى به الحال إلى إنشاء صحيفة همزة الوصل " **Trait d'union**" واهتم كثيرا بنفي الأمير خالد في مقالاته بين سنوات 1919-1924؛ له عدة مؤلفات ومقالات من أهمها: 1-M'sila-Hodna 1900. / 2-la colonisation et la question Indigène 1923. / 3-les grands Domaines Nord-africains 1927. / 4-l'Expropriation des Ouled Dieb 1930. / 5-La Tribu des Hachemi 1931. / 6-La colonisation Algérienne 1933. / 7-Les grands problèmes algériennes 1934.

ويمكن مراجعة بهذا الخصوص كل من: أحمد الخطيب: حزب الشعب الجزائري، ص. 77. عبد الحميد زوزو: الهجرة الجزائرية ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين (1919-1939)، ص. 111. -Mahfoud Kaddache: **histoire du Nationalisme Algérien 1919-1951**, tom. 1. P. 103

¹⁶ - محي الدين القليبي: المصدر السابق، ص. 88.

¹⁷ - علال، الفاسي: ((نبذة عن حياة الحمامي)) المصدر السابق.

¹⁸ - نفسه.

¹⁹ - هو خالد ابن الأمير الهاشمي بن الأمير عبد القادر، ولد في سنة 1292هـ / 1875م، بدمشق وبها نشأ وتعلم، عاد برفقة والده إلى الجزائر، زاول تعليمه بثانوية "لوي لوجران" بباريس، ثم التحق بمدرسة سان سير العسكرية فتخرج برتبة ملازم؛ وبعد تخرجه جندته فرنسا في

كان يتأسسها²⁰، وحسب عبد الحميد زوزو فإن الحمامي كان من بين المستمعين لمحاضرات الأمير خالد التي كان يلقيها بفرنسا أثناء إشرافه على تأسيس لجنة من أبناء شمال إفريقيا²¹. وينفرد علال الفاسي هنا بأن الحمامي أسس مع الأمير خالد ومع السيد مصالي الحاج جمعية النجم الإفريقي، ويشاطر هذا الطرح الدكتور حميده عميراوي الذي يقول عن الحمامي بعد ما أشار إلى نضاله في المغرب إلى جانب كل من عبد المالك وعبد الكريم الخطابي: «ومن غير المستبعد أنه شارك مع مصالي الحاج في تنشيط النضال المغربي في فرنسا»²². وهذا ما لم تشر إليه بقية المصادر أو المراجع التي عدنا إليها.

وأثناء تصفحنا لكتاب المناضل والمجاهد عبد الرحمان العقون²³ وجدناه يتطرق إلى الحمامي ويحدد لنا موقعه في النجم؛ وهذا ما نلمسه من خلال النص الآتي: «والحقيقة التي هي مأخوذة من مصادر محققة هي كما يلي: كان ميلاد حركة ((نجم الشمال الإفريقي)) بمدينة باريس -فرنسا- يوم 2 مارس 1926 في جلسة تحضيرية، وفي جلستين تاليتين: في 20 جوان و2 جويلية 1926 استكمل التأسيس وتولى رئاسته الفعلية أولا حاج علي عبد القادر، وأعطيت الرئاسة الشرفية للأمير خالد،

فرقة الصبايحية بالجزائر من سنة 1897-1904؛ أدى واجب الخدمة العسكرية بالمغرب الأقصى، ثم عاد إلى الجزائر فترقى إلى رتبة نقيب سنة 1908؛ استقال من الجيش الفرنسي سنة 1910؛ غير أنه لم يلبث أن عاد إليه؛ شارك في ح. ع. 1 برتبة قبطان سبائحي-الصبايحية-، وبعد نهايتها انخرط في الحياة السياسية الوطنية الجزائرية؛ أسس جريدة الإقدام سنة 1920، ونظرا لنشاطه المعادي لفرنسا قررت نفيه في حدود سنة 1923 نحو فرنسا، غير أنه لم يتوقف عن مواصلة نشاطه السياسي، ومن هناك توجه نحو مصر أين ألقى عليه القبض من طرف السلطات المصرية بحجة أنه يحمل جواز سفر مزور، فحكمت عليه المحكمة القنصلية الفرنسية في الإسكندرية في شهر أوت 1925 بخمس شهور، وبعد استئناف الحكم أطلق سراحه فتوجه إلى مسقط رأسه، وظل بقية حياته هناك حتى توفي بها. يراجع: عادل، نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص-ص. 99-100، حميده، عميراوي: الأمير خالد وخطاب الحركة الوطنية الجزائرية، ص-ص. 113-114.

²⁰ - أبو عمران الشيخ: معجم مشاهير المغاربة، ص. 167.

²¹ - الهجرة الجزائرية ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين (1919-1939)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص. 53. ومن بين المستمعين للأمير خالد فضلا عن الحمامي: الحاج عبد القادر والحاج مصالي وعبد العزيز المنور وأحمد بملول وبانون آكلي.

²² - مواقف نضالية وإصلاحية، المرجع السابق، ص. 129.

²³ - انخرط منذ نعومة أظفاره في صفوف الحركة الوطنية الجزائرية، ثم سرعان ما انخرط في صفوف الثورة التحريرية، ونظرا لنضاله المتميز لم يسلم من مراقبة البوليس الفرنسي حيث ألقى عليه القبض وزج به في السجن، لكن إرادته الفولاذية أبت عليه أن يظل قابعا في السجن فتمكن من الفرار منه سنة 1956، فكلفته حينها جبهة التحرير الوطني بتمثيلها في المشرق العربي حيث فاستقر به المقام في الأردن كسفير للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية أثناء حرب التحرير وبعد الاستقلال، لكنه أبى أن يعود إلى سلك التربية التعليم التي جبلت عليها نفسه، فواصل حياته كأستاذ للغة والأدب العربي، ثم تولى عدة مناصب ومهام في إطار التكوين والتوجيه الإسلامي مع ثلة من إخوانه في المجلس الإسلامي الأعلى. يراجع: الكفاح القومي والسياسي، صفحة الغلاف الخارجي.

والكتابة العامة لمصالي أحمد، وعضوية: رابح موساوي، وعلي الحمامي، وعلي عيمش، والرزقي كحال، وأحمد بلغول، ومحمد جفال، ومحمد طالب»²⁴.

وبعد هذا الموقع الذي حدده لنا عبد الرحمان بن العقون بخصوص الحمامي لم نكد نعثر على أي تفاصيل أخرى بخصوص نشاطه بفرنسا أو بنجم شمال إفريقيا، غير أن علال الفاسي وجدناه ينفرد بمعلومات أخرى مفادها: «وبعد ذلك انخرط -الحمامي- في الحزب الشيوعي الفرنسي، فكان يكتب في "الإنسانية" فصولا عن شمال إفريقيا وتغلغل في العمل النقابي حتى صار من العاملين في حياة س. ج. ط. ثم حدث له خصام مع زعيم الحزب الشيوعي "طوريس" أدى بهذا الأخير إلى شتمه فرماه الحمامي بدواة جرح بها وجهه، وتدخلت موسكو في الأمر فانتقل الحمامي موظفا بعاصمة السوفييات بإدارة تتعلق بتنسيق أعمال الفلاحين في العالم»²⁵.

4-انتقاله إلى موسكو: لا ندري متى انتقل الحمامي إلى العاصمة السوفيتية موسكو، ولكن من غير المستبعد أن يكون انتقاله إليها في حدود سنة 1928 أين تم توظيفه بإدارة تتعلق بتنسيق أعمال الفلاحين في العالم؛ وقد مكث الأستاذ الحمامي في موسكو مدة ثلاثة أعوام درس فيها الحالة في روسيا؛ وأداه ذوقه وإدراكه إلى النظام الروسي ليس هو المثل الأعلى الذي كان ينشده فخرج إلى جنيف حيث قضى آمدا يتعاون مع الأمير شكيب أرسلان.²⁶

5-انتقاله إلى جنيف وبعض العواصم الأوروبية: على اثر عودته من موسكو يكون الحمامي قد تنقل بين عدة عواصم أوروبية؛ حيث التقى بعدد هائل من الشخصيات العربية والإسلامية التي كانت تناضل في سبيل تحرير شعوبها من قبضة الاستعمار الأوربي، وبخصوص نشاط الحمامي وتنقله عبر هذه العواصم لا تكاد المصادر والمراجع التي عدنا إليها تتحدث عن هذه الفترة؛ إلا أن المصدر الوحيد في حدود علمنا الذي تتبع تحركات الحمامي بين هذه العواصم هو ما كتبه المناضل المغربي الطيب بنونة في كتابه السالف الذكر.

لقد اشتمل هذا الكتاب على عدة رسائل تم تبادلها في معظمها بين كل من أمير البيان شكيب أرسلان (ت 1946)²⁷ والحاج عبد السلام بنونة²⁸؛ وأثناء قراءتنا لهذه الرسائل وقفنا على ستة

²⁴ - الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر الفترة الأولى 1920-1936، ج. 1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص. 123.

²⁵ - علال، الفاسي: ((نبذة عن حياة علي الحمامي))، المصدر السابق.

²⁶ - نفسه.

²⁷ - من مواليد قرية الشويفات ببلنات سنة 1871، أديب ومناضل سياسي متميز، قضى جزء كبير من حياته في سبيل مناهضة الاستعمار الفرنسي إلى جانب ثلة من الوطنيين الأحرار سواء في المغرب أو المشرق وفي كثير من العواصم الأوروبية، يعد من أعلام النهضة العربية الحديثة، له مؤلفات عديدة؛ يراجع: المنجد في اللغة والأعلام، ص. 37.

منها تم التطرق فيها إلى علي الحمامي؛ ومن خلالها تمكّننا من تحديد موقعه بشكل جيد بعد عودته من موسكو وحصر نشاطه خلال الفترة الممتدة من 19/02/1931 إلى 20/03/1935؛ وهو تاريخ تحرير هذه الرسائل. والجميل فيها هو تتبعها الدقيق للحمامي منذ التحاقه بجنيف والانشغال الذي أبداه كل من شكيب أرسلان وبنونة حوله؛ وهذا يدل على مدى الارتباط الوثيق الذي جمع فيما بينهم. وعليه يمكننا معالجة هذه الرسائل حسب تاريخ تحريرها على النحو الموالي:

- الرسالة الأولى: مؤرخة بمدينة لوزان بسويسرا في 3 شوال 1349هـ / 19 فيفري 1931. ومما جاء فيها بخصوص الحمامي الذي أشارت إليه على أنه مكافح مغربي مهاجر: «تعرفت في برلين بشاب أصله من المغرب الأقصى وأقام أبوه بتاهرت من عمل وهران وهو ذكي مطلع يحسن الإنشاء بالفرنسية وكان في حرب عبد الكريم وقبلها مع عبد المالك، واسم هذا الشاب الحمامي وقد كان يكتبني ثم جاءني وواجهني ولقيته في حفلة عملها لي الطلبة السوريون والعراقيون وقد شكّا لي منكم ففي الحال قلت له: يا أخي يلزم أن تنصفوا أن الحاج عبد السلام بنونة هو ركن المغرب ولم أجد أشد منه حمية على الإسلام لكن ماذا يصنع؟ بلده لا تقدر على مقاومة الإسبان وفيها 50 ألف مسلم إذا لم يدافع عنهم فإنهم يضمحلون تماما، وهل يقدر الحاج عبد السلام أن يرفع الأضرار عن مسلمي تطاون إن لم يحسن السياسة مع الإسبانيول؟ قلت له: إن المترلّفين إلى الأجانب حبا بأنفسهم لكم الحق أن تقولوا فيهم ما شئتم فأما الذين هم مضطرون لمحاسنة الأجانب أملا بتخفيف الشرور عن قومهم مع التهاب قلوبهم بالحمية على ملتهم فهؤلاء أنا أعذرهم بل أشكرهم. فما زلت به حتى أقنعتة وقال: إن الحاج عبد السلام بنونة هو أذكى رجل بالمغرب»²⁹. ومن بين النقاط التي عالجتها هذه الرسالة:

1. محاولة نسب الحمامي إلى أصول مغربية رغم أنه من أصول جزائرية.!

²⁸ - هو ابن الحاج العربي بن المهدي بن العربي بن محمد بن الحاج أحمد بن الفقيه الحاج محمد بن عبد الواحد بنونة الفاسي الأصل؛ وللعلم أن هناك اختلاف بين المؤرخين في نسب وأصل عائلة آل بنونة فهناك من يرى بأنها من أصول أندلسية ثم هاجرت إلى الجزائر أثناء سقوط مدينة غرناطة سنة 1492 واستقرت بمدينة تلمسان حيث توجد حاليا مقبرة قديمة لآل بنونة بجوار ضريح الولي الصالح سيدي أبي مدين الغوث وبها كتابات على الرخام عن شخصيات هذه العائلة، ولقد كان لهذه العائلة موقف متذبذب من مقاومة الأمير عبد القادر بقيادة زعيمها محمد بنونة في تلمسان؛ وهناك من يرى أنها من أصول مغربية فاسية؛ حيث تذكر بعض المصادر المغربية أن عائلة بنونة المقيمة حاليا في تطاون والتي تعود في نسبها للجد والفقيه المحدث الحاج محمد بن عبد الواحد قد انتقلت من فاس في أوائل القرن 12هـ. يراجع كل من: الطيب، بنونة: نضالنا القومي في الرسائل المتبادلة بين الأمير شكيب أرسلان والحاج عبد السام بنونة، ص. 164.

Ougest, Cour : (L'occupation marocaine de Tlemcen, septembre, 1830 – janvier 1836)

R.A. N° 52, année 1908, O.P.U. Alger

²⁹ - الطيب، بنونة: نضالنا القومي في الرسائل المتبادلة بين الأمير شكيب أرسلان والحاج عبد السام بنونة، ط. 1، مطبعة دار أمل، طنجة، 1400هـ / 1980م، ص-ص. 168-169.

2. مشاركة الحمامي إلى جانب كل من الأمير عبد المالك والأمير عبد الكريم الخطابي في المغرب الأقصى.

3. معاناة الحمامي لعبد السلام بنونة في تقصيره في مقاومة الإسبان ومهادنتهم.

-الرسالة الثانية: مؤرخة في 20 نوفمبر 1932 وهي رسالة طويلة جدا حيث تضمنت الحديث عن حالة الحمامي واضطهاده وأزمته المالية وطلب العون له لإنقاذه؛ ومما جاء فيها بهذا الخصوص: «يا أخي إن علي الحمامي الذي قابلتموه في برلين كان قد جاءه مكتوب من نظارة الخارجية في الحجاز بالسفر إلى مكة لأجل أن يعطوه عملا فيها لكنهم لم يرسلوا إليه بنفقة السفر وفي ذلك الوقت أخرج الألمان الغرياء الذين بدون عمل من بلادهم وأخرجوه من الجملة فجاءنا إلى حنيف خاوي الوفاض بادي الانفاض يطلب أن نسفره إلى جدة وأقام بحنيف على نفقتنا مدة بحيث وجدنا الأحسن لنا وله أن نسفره إلى جدة بالدرجة الثالثة ودفع كل منا ومن أخي عادل ومن أخي الجابري 100 فرنك سويسري وسفرناه عن طريق إيطاليا إلى بورسعيد ليأخذ منها أو من السويس وابورا [مركب بحري] يوصله إلى جدة ولما كان النحس مرافقا هذا الرجل رفضت الحكومة المصرية في بورسعيد أن تدعه ينزل بحجة انه شيوعي وعندها اسمه في قائمة الشيوعيين واضطر أن يرجع في الوابور إلى إيطاليا ووصل إلى تريستا [مدينة تقع على السواحل الشمالية للبحر الأدرياتيكي] وأرسل من هناك يستغيث بنا ويلتمس مني ومن أخي الجابري أن نرسل إليه نفقة سفره مرة أخرى حتى يذهب إلى مصوع [مدينة ساحلية تقع بالبحر الأحمر من أراضي إريتريا] ومنها يأتي إلى جدة».

ثم تنتقل الرسالة إلى الحديث عن طلب الحمامي القاضي بجمع التبرعات له من أعيان مدينة تطوان بالمغرب قصد إعالته على محتته؛ ومما جاء في ذلك: «وكان في المرة الأولى قد رغب إلينا أن نكتب إليكم وإلى أعيان تطوان في أمر مساعدته بما يوصله إلى الحجاز لكننا نحن لم نجد المسالة تستحق تصديعكم وتعاوننا أنا وأخي عادل وأخي الجابري وأخذنا من الحسن بوعياذ 50 فرنكا سويسريا حتى لا يزيد كلفتنا عليه في مجيئه إلى حنيف ولكنه أرسل يستغيث مرة ثانية قائلاً: سفروني وإلا هلكت جوعاً، وهو يلتمس منا مرة ثانية أن نراجع تطوان في قضيته فلم يكن لنا بد من ذلك».

ثم سرعان ما تسترسل في شرح تفاصيل مساعدته بمبالغ مالية وكيفية استفادته منها: «إن هذا الرجل لما كان في برلين ساعدته على ثلاث دفعات بمائتين وعشرين فرنكا سويسريا -أي نحو 650 بسيطة- هذا عدا ما تغرمنا عليه هذه المرة والآن برغم الضيق الحالي أنا راض بان أتغرم عليه 100 فرنكا سويسريا أيضا حتى اخلص من همه ولكنه من حيث انه مغربي ومولود بتطوان وكان في بلادكم مدة طويلة وهو ما برح يستغيث بكم فإننا أنا وزميلي الجابري نرجو منكم أن تجمعوا له من كيسكم وكيس ذوي الحمية ولو 300 بسيطة وترسلوها إليه إلى تريستا رأسا بحسب العنوان الذي بذيله وان تعجلوا

بذلك حتى لا يصرف مساعدتنا ومساعدتكم في طول إقامته بترستا والله يجازيكم جميعا أفضل الجزاء ونرجو الجواب عن طريق السنيور رفولس والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» . عنوانه

A. El Hammamy/ Albergo Abbasia Via della geppa. 20 Triesta.
Italia.

ومن بين النقاط التي اشتملت عليها هذه الرسالة:

1. مراسلته من طرف نظارة الشؤون الخارجية بالحجاز بالسفر إلى مكة المكرمة قصد إيجاد عملا له هناك.

2. طرده من برلين كغيره من الأجانب الذين لا يتوفرون على عمل بها.

3. توجهه إلى العاصمة السويسرية جنيف.

4. رحلته من جنيف إلى ايطاليا ثم إلى بورسعيد بمصر ورفض السلطات المصرية نزوله بحجة أنه كان من الشيوعيين، وأعتقد أن ذريعة السلطات المصرية واهية لأن الحمامي لم يكن شيوعي رغم تعامله مع الشيوعيين وانخراطه في الحزب الشيوعي وسفروه إلى موسكو، فهذا ليس معناه بالضرورة أن يكون شيوعي، وللعلم أن هذه التهمة وجدنا عدا الفاسي الذي ينفرد بها في روايته. وهذه التهم عادة ما تستهدف العظماء قصد تشويه سمعتهم على غرار ما قيل عن الأمير عبد القادر بانتماؤه للمخفل هالماسوني، وهو بريء تماما من هذه التهمة الواهية.

5. عودته من جديد إلى ايطاليا وطلبه بجمع التبرعات له من جديد حتى يسافر مرة أخرى نحو مصوع التي سينتقل منها نحو جدة.

6. عودة الرسالة إلى الحديث على أن الحمامي مغربي مولود بتطوان؛ وهذا خطأ غايثنا التنبيه إليه.

-الرسالة الثالثة: مؤرخة بجنيف في 1 شعبان 1351هـ/ 30 نوفمبر 1932 وموضوع هذه الرسالة مثل سابقتها كله عن حالة علي الحمامي وطرده من مصر أولا ومن ايطاليا وما يعانيه من بؤس ووجوب مساعدته ماديا من تطوان كما ساعده الأمير ورفقاؤه، ومما جاء فيها بهذا الخصوص: «سيدي الخ قبلا كتبت لكم بشأن علي الحمامي وتسفيرنا إياه إلى جدة وإعادة الحكومة المصرية إياه من بورسعيد بحيث ذهب ما أديناه عنه من المصاريف سدى ولما ارجع إلى تريسيتي أرسلت يستغيث بنا ثاني مرة وكتبنا إليكم أملا بان تعاونوه بشيء من تطوان وفي هذهثناء أنذرته الحكومة الإيطالية بالخروج وضافت عليه الأرض بما رحبت ولم يكن في يده شيء فبعث إلينا يستعجل البر حتى يركب باخرة ايطالية إلى مصوع ومنها يأتي إلى جدة فاضطررنا أنا والأخ الجاهري حتى لا يهلك هذا الرجل جوعا أن نرسل إليه 300 فرنك سويسري وساعد الحسن بوعياذ منها بثلاثين فرنكا وأرسلناها إليه أمس، فالمقصود إن كنتم أرسلتم إليه معونة رأسا بعنوانه في تريسيتي فأفيدونا؛ وإن كنتم لم ترسلوا إليه بعد ومرادكم إرسال شيء فأرسلوه إلينا لأننا عدا كوننا تكلفنا على هذا الرجل أولا وثانيا وثالثا نحو من 900 فرنك سويسري لا نأمن أن تكون

هذه آخر مرة يستصرخنا بها فإنه كيفما ذهب يجد الباب مسدودا ولا ملجأ له فلا يجد أمامه غيرنا ونحن تأبى مروءتنا أن ينادينا أخ مسلم في أقصى درجات البؤس فلا نجيبه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»³⁰.

- الرسالة الرابعة: مؤرخة بجنيف في 12 شعبان 1351هـ/ 11 ديسمبر 1932م وهي رسالة مطولة ومن بين ما تناولته شكر بنونة على مساعدته المادية للحمامي، ومما جاء فيها بهذا الخصوص: «أشكرك جدا على رفدك للحمامي المسكين الذي ضاقت عليه الأرض بما رحبت، دفع الله عنك وعن أولادك كل بلاء، أظنه سافر إلى مصوع ومنها يأتي إلى جدة وهناك يعيش كيفما كان»³¹.

- الرسالة الخامسة: مؤرخة بجنيف في 22 شعبان 1351هـ/ 21 ديسمبر 1932م، رسالة تضمنت عدة مواضيع كان من بينها الإعلام باستلام الحمامي لمعونة مالية من بنونة؛ ومما جاء فيها بهذا الخصوص بعد التهئة بقدم شهر رمضان: «كنت كتبت لك بان الحمامي كتب إلينا بأن رفدك 10 ليرات وشيئا وصله لا عدم الإسلام سندا مثلك ودفع البلاء عنك وعن أولادك»³².

الرسالة السادسة: مؤرخة بجنيف 24 ذي الحجة 1353هـ/ 20 مارس 1935، وهي رسالة مطولة وتناولت مواضيع شتى كان من بينها علي الحمامي ومساعدة بنونة له ماديا؛ ومما جاء فيها بهذا الخصوص: «ومرة جاءنا علي الحمامي شاب مغربي منفي من كل المغرب مقيم ببرلين ضاقت به سبل العيش فالتجأ إلينا طالبا منا تسفيره إلى الحجاز لأنه لا يقدر أن يدخل إلى المغرب ولا إلى مصر ولا إلى سورية، ولم يجد ملجأ سوانا فلزم أن نعاونه وتكلفنا نفقات تسفيره فلما وصل إلى بورت سعيد لم يتركوه يذهب إلى الحجاز فردوه إلى تريستا فبعث يستصرخنا ثاني مرة ونحن كنا تكلفنا مبلغا أنا وزميلي الجابري وأخي عادل في سفرته الأولى فالتزمنا أن نبعث إليه مبلغا ثانيا إلى تريستا، ومن الحملة أخذنا من الحاج حسن أبي عياد خمسين فرنكا سويسريا وقلنا له هذا من بلادك وان كان في الحقيقة كل بلاد الإسلام سواء في نظر المسلم ثم كتبت إلى المرحوم بخبر الحمامي وأعطيته عنوانه في تريست فما مضت جمعتان حتى جاءني من الحمامي يقول أن الحاج عبد السلام أرسل إليه عشرة جنيهات»³³.

- انتقاله إلى بغداد واستقراره بها: بناء على ما ورد في الرسالة الثالثة من احتمال انتقال الحمامي إلى مصوع ثم إلى مدينة جدة بالمملكة السعودية؛ يكون قد انتقل من هذه الأخيرة باتجاه مدينة بغداد. ورغم عدم توفرنا على التاريخ الرسمي لوصول الحمامي إلى بغداد؛ فإنه من غير المستبعد أن يكون في حدود 1934. ومن بين النشاطات التي قام بها أثناء استقراره ببغداد لمدة 14 سنة:

³⁰ - نفسه، ص-ص. 303-304.

³¹ - نفسه، ص. 313.

³² - نفسه، ص. 314.

³³ - نفسه، ص-ص. 350-351.

1. تم تعيينه كأستاذ لمادة التاريخ والجغرافيا لمدة تزيد عن 12 سنة أي من سنة 1934-1947 وهو تاريخ انتقاله إلى مصر وطيلة هذه الفترة كان منشغلا بالكتابة؛ وهذا ما جاء على لسان رفيقه في النضال عبد المجيد بن جلون: «فكان في العراق يكتب بنفسه لنفسه ليرضي هذه النزعة الكبيرة التي يختلج بها قلبه الكبير»³⁴.
2. تعرفه على الزعيمين الكبيرين عبد العزيز الثعالبي (الجزائري الأصل)، مؤسس الحزب الدستوري التونسي، وسليمان باشا الباروني (الليبي) مؤسس جمهورية طرابلس³⁵.
3. قام بنشاط صحفي وإعلامي كبير جدا في سبيل مناهضة الاستعمار الفرنسي لبلدان المغرب العربي، والتعريف بقضية بلاده وما تعانيه من ويلات تحت وطأة هذا الاستعمار، ولا شك أن تعرفه على الزعيمين السابقين كان له دور كبير في تنسيق جهودهم نحو طرق ووسائل تحرر شعوب المغرب العربي.
4. ألف قصته المشهورة باسم "إدريس"³⁶ باللغة الفرنسية في الفترة الممتدة من شهر ديسمبر 1941 إلى شهر جويلية 1942؛ وهي قصة استوحاها من تجربته النضالية والتحررية بمنطقة الريف المغربية أثناء مشاركته في الكفاح المسلح إلى جانب كل من الزعيمين عبد المالك الجزائري وعبد الكريم الخطابي؛ وبعد انتقاله إلى القاهرة يكون عبد الكريم الخطابي قد كتب مقدمة لهذا الكتاب مؤرخة في 23 جمادى الأولى 1367هـ/ 3 أبريل 1948م. وهو ما يجعلنا نستبعد رواية الهادي الحسني القائلة بتأليف القصة بالقاهرة عندما يقول: وقد أثمرت صلته بالأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي عملا أدبيا هو رواية "إدريس"، كما يجعلنا نستبعد نشر هذه القصة في شكل كتاب قبل تاريخ 03 أبريل 1948؛ تاريخ تقديم الخطابي لهذا الكتاب؛ وسنعود لهذه القصة أثناء الحديث عن آثار الحمامي.
- عودته إلى القاهرة وانضمامه إلى مكتب المغرب العربي: انتقل علي الحمامي إلى القاهرة سنة 1947 على اثر عملية فرار عبد الكريم الخطابي من السفينة الفرنسية التي كانت تقله من جزيرة "ريونيون" إلى فرنسا واستقراره بالقاهرة بعد نجاح هذه العملية، فهذا يعد في نظر محمد الهادي

³⁴ - عبد المجيد، بن جلون: ((الثلاثة الذين استشهدوا))، البصائر، ع. 106، السنة 3، السلسلة 2، يوم الاثنين 17 ربيع الأول

1369هـ/ 06 فيفري 1950م، ص. 137. (ص 3 في العدد)

³⁵ - محي الدين القليبي: المصدر السابق، ص. 87.

³⁶ - أبو عمران، الشيخ: ((علي الحمامي وقصة إدريس))، الثقافة، ع. 42، السنة السابعة، ش. و. ن. ت، ذو الحجة - محرم 1398هـ/

ديسمبر - جانفي 1978، الجزائر، ص-ص. 76-78.

الحسني سببا في انتقال الحمامي إلى القاهرة³⁷. وذلك نظرا للعلاقات الحسنة التي سبق وأن ربطته بالخطابي في المغرب أثناء حرب الريف. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فنحن لا نستبعد سبب انتقال الحمامي نحو القاهرة إلى ذلك الدور والنشاط التحرري الدءوب الذي كان يقوم به ثلة من الوطنيين الأحرار المنخرطين والمؤسسين سواء لجهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية أو لمكتب المغرب العربي بالقاهرة، وبحكم فعالية الحمامي وحبه للنضال التحرري عبر العالم العربي والإسلامي يكون قد التحق بالقاهرة بعدما وصلته أخبار تفيد بوجود هذه النخبة المغاربية التحرية في القاهرة. وما يؤكد هذا الطرح هو ما جاء على لسان رفيق دربه محي الدين القليبي بعدما أشاد بتنقلاته الماراطونية: «طاف شمال إفريقيا بأكمله والشرق حتى أقصاه وأوربا غربيها وشرقيها حتى روسيا أقام فيها سنوات ثم استقر في العراق 14 سنة، وجاء إلى مصر أخيرا لما علم بأن رجلا هناك يجاهدون لتحرير المغرب فانظم إليهم وعمل في صفوفهم تحت راية صديقه القاسم الأمير عبد الكريم؛ وقد كان قبل ذلك في جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا يرأسها ويرفع صوتهما حيث كان»³⁸.

وبحكم تجربة الحمامي وثقافته الواسعة وإتقانه للغات عالمية شتى كالفرنسية والإسبانية والإيطالية والألمانية والتركية -يكتب ويخطب بجميعها- يكون قد ساهم بشكل كبير جدا في تفعيل مكتب المغرب العربي بالقاهرة- بعدما أصبح عضوا فيه- على مستوى عالمي؛ خصوصا مع الوفود العربية والإسلامية التي كانت تحل بالقاهرة بين الحين والآخر؛ وإلى جانب هذا يكون قد ساهم بعمل صحفي كبير جدا عبر أعمدة كثير من الجرائد والصحف المصرية وعلى رأسها مجلة الأساطير؛ كما يكون قد اشترك مع الخطابي في ترجمة مذكراته عن الحرب الريفية³⁹. ويذكر عبد المجيد بن جلون بخصوص نشاط الحمامي بالقاهرة: «كان يزورنا في مكتب المغرب العربي كل يوم تقريبا وكان يطمئن إلينا ويسهب في الحديث عن مختلف شؤون الحياة»⁴⁰.

ولعل هذه المكانة المرموقة للحمامي هي التي جعلت مكتب المغرب العربي بالقاهرة يعينه ممثل عن الجزائر في مؤتمر كراتشي الاقتصادي المناهض للاستعمار بباكستان؛ وهذا ما سنعرفه في العنصر الموالي.

-مشاركته في المؤتمر الإسلامي بباكستان 1849 واستشهاده في حادث تحطم الطائرة: يذكر لنا أبو محمد أنه تم إيفاد ثلاثة من أبطال الكفاح والنضال ومن المجاهدين الصادقين في سبيل الله والعروبة والوطن؛ وهم كل من: الدكتور الحبيب ثامر التونسي والدكتور علي الحمامي الجزائري والأستاذ محمد

37 - محمد الهادي الحسني: المرجع السابق، ص. 21.

38 - البصائر، ع. 100، المصدر السابق، ص. 87.

39 - محي الدين القليبي: المصدر السابق، ص. 88.

40 - عبد المجيد، بن جلون: المصدر السابق، ع. 107، ص. 144.

عبود المراكشي؛ من مكتب المغرب العربي بالقاهرة لتمثيل بلدان المغرب العربي في مؤتمر كراتشي الاقتصادي بباكستان⁴¹؛ وهو مؤتمر مناهض للاستعمار بمختلف أشكاله وخاصة الهيمنة الغربية على اقتصاد الدول الفقيرة والضعيفة. ثم يواصل القول بشأنهم: مثلوا قطرنا المغرب العربي بأقسامه الثلاثة في مؤتمر كراتشي الاقتصادي فأحسنوا تمثيله، وهنالك بين أمم العالم سطع نجمهم وتألق نور محبتهم ورفعوا بجهودهم وبأخلاقهم الرفيعة رأس وطنهم عاليا فخورا، واغتنموا هنالك فرصة لنشر قضية البلاد والتشهير بآفات الاستعمار والتبشير بآمال الأمة وبحيويتها واستعدادها للبروز قوية متينة إلى عالم الحياة الحرة المستقلة⁴².

ومن دلائل نجاح هذه الوفادة المغاربية حسب أبو محمد هو احتجاج حكومي فرنسا وبريطانيا لدى باكستان على قبولهم بين أعضاء هيئة هذا المؤتمر؛ وعليه فمشاركتهم تكون قد حققت نجاحا معتبرا وأصاب الاستعمار في الصميم. وبعد انتهاء أشغال المؤتمر قفل هؤلاء عائدین إلى القاهرة موقع جهادهم إلى جانب الجامعة العربية؛ غير أن المنية استعجلتهم في حادث تحطم الطائرة التي كانت تقلهم يوم 12 ديسمبر 1949 عندما اصطدمت بقمة جبل في منطقة اسلامستان⁴³. وهكذا يتم إسدال الستار عن حياة هذا المناضل الجزائري الذي فاقت شهرته كل الآفاق.

وعلى اثر هذا المصاب الجلل ونظرا لمكانة الحمامي عند زعماء الحركة الإصلاحية بالجزائر خصوصا جمعية العلماء المسلمين الجزائريين راح كثير من محبيه ومعاصريه يُقدمون التعازي وينشرون مناقبه؛ ومن دلائل ذلك ما جادت به جريدة البصائر التي عاجلت هذه النكبة بشكل موسع في الأعداد التالية: 99-100-102-107 .

ومما جاء في مقال أبو محمد الموسوم بالفاجعة: «إذا ما نحن جزعنا فهذا موطن الجزع، وإذا ما التعنا فهذا هو ميدان اللوعة والأسى، وإذا ما نحن لبسنا أثواب الحداد، فعلى مثلهم يرتدى السواد... ثلاثة⁴⁴ من أبطال الكفاح والنضال، ومن المجاهدين الصادقين في سبيل الله والعروبة والوطن خروا شهداء في ميدان الواجب والشرف، لم يدنس لهم عرض، ولم تنكس لهم رأس، ولم تتلم لهم كرامة، لقد عاشوا أحرارا وماتوا أبرارا، كانوا خلال حياتهم العامرة الثرية بجلال الأعمال مثال الشهامة والتضحيات والثبات ونكران الذات في سبيل المثل الأعلى، وكانت النار، نار الغيرة والإحساس والوطنية

41 - أبو محمد: ((الفاجعة))، البصائر، ع. 99، السنة 3، السلسلة 2، يوم الاثنين 29 صفر 1369هـ/ 19 ديسمبر 1949م، ص.

83 (ص. 3 من العدد).

42 - نفسه، ص. 81.

43 - عبد المجيد، بن جلون: المصدر السابق، ص. 137.

44 - يشير هنا إلى كل من الدكتور الحبيب ثامر التونسي والدكتور علي الحمامي الجزائري والأستاذ محمد عبود المراكشي.

الحقة تتأجج في قلوبهم الطاهرة النقية، فكتب الله لهم أن تأكل تلك النار أجسامهم بعد القلوب وان يهتموا صفحة الجهاد بالاستشهاد»⁴⁵.

-تشيع جثمانه بمقبرة سيد محمد بالعاصمة وتأبينه من طرف زعماء الحركة الوطنية: لقد انفردت جريدة البصائر بتتبع مسار نقل جثمان الحمامي من باكستان إلى غاية مواراته التراب بمقبرة سيدي محمد بالجزائر العاصمة؛ فبعدما تم نقل جثمانه الطاهر إلى جانب جثة رفيقه محمد عبود المراكشي من باكستان إلى القاهرة يكون مكتب المغرب العربي بالقاهرة قد أبرق إلى مركز حزب البيان الجزائري بالجزائر بترقب وصول جثمان الفقيد إلى مطار الدار البيضاء "ميزون بلانش" يوم الجمعة ، غير أن سوء الأحوال الجوية ساهم في تأجيل هذه الرحلة إلى اليوم الموالي؛ حيث حطت الطائرة القادمة من مطار القاهرة بالجزائر العاصمة أين قامت إدارة المطار بتسليم جثة المرحوم إلى نفر من رجال البيان وكتائب من شبابه؛ ثم واصلت رحلتها نحو المغرب كونها كانت تنقل جثمان المرحوم محمد بن عبود⁴⁶.

وعلى اثر ذلك تم نقل جثمان المرحوم إلى مركز البيان بالعاصمة أين تم وضع نعشه المسحى بالعلم الجزائري وعليه باقة من الزهور تحمل اسم مكتب المغرب العربي بالقاهرة واسم دولة باكستان؛ ثم سرعان ما تولت إدارة المركز إجراء عملية مراسيم التشيع التي تم تحديدها يوم الأحد 01 جانفي 1950 بعد صلاة الظهر بمقبرة سيدي محمد بالعاصمة، وفي اليوم الموالي اجتمعت جموع غفيرة من الشعب الجزائري بمختلف شرائحه خاصة كونها تزامنت مع ذكرى إحياء المولد النبوي الشريف، فانطلق الموكب من مقر الحزب باتجاه المقبرة يتقدمه ممثلوا الهيئات والأحزاب والشخصيات البارزة في العاصمة مثل: الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، العربي التبسي، العباس بن الحسين، أحمد بوشمال أحد أعضاء وفد قسنطينة، فرحات عباس الكاتب العام للبيان الجزائري.. الخ⁴⁷.

ورغم الجو الممطر والبارد فإن هذا لم يؤثر على السير الحسن ونظام الموكب الذي وصل المقبرة، ثم تولى الصلاة عليه الشيخ العباس بن الحسين أحد أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ ثم تقدم الشيخ البشير الإبراهيمي لإلقاء كلمة تأبينية مطولة نفتبس منها ما يلي: «أيها الإخوان...أيها الشبان: إن هذا التابوت الموضوع بين أيديكم لا يحمل جثمان شخص، وإنما يحمل قطعة من الوطن الجزائري فصلت عنه ثم ردت إليه...قطعة من الوطن فصلها عنه ظلم البشر ثم ردها إليه عدل الله»⁴⁸. وبعد أن

45 - نفسه، ص. 81.

46 - باعزیز بن عمر: ((تشيع جثمان الفقيد الكبير علي الحمامي))، البصائر، ع. 102، السنة 3، السلسلة 2، يوم الاثنين 19 ربيع الأول 1369هـ/ 1950/01/09 م. ص. 103. وللعلم هنا أن جثة المرحوم الحبيب ثامر التونسي احترقت تماما حتى صارت ترابا

الشيء الذي حال دون نقلها مع الجثمانين الطاهرين.

47 - نفسه، ص. 103.

48 - نفسه، ص. 103.

عدد خصاله ختم كلمته بتوجيه الشكر والامتنان باسم الجزائر إلى دولة باكستان ودولة مصر، ورئيس المكتب العربي بالقاهرة الأمير عبد الكريم، وسعادة الأمين العام للجامعة العربية على المساعي المبذولة من الجميع لنقل جثث ضحايا الكارثة إلى أوطانهم التي تكلموا باسمها في المؤتمر⁴⁹.

وبعد كلمة الشيخ الإبراهيمي تقدم فرحات عباس الأمين العام لحزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري لإلقاء كلمة أحاط فيها الحضور بنضال الحمامي الذي غامر في سبيل القضية الجزائرية؛ وطاف بذلك أطراف العالم شرقه وغربه في جهاد متواصل دون كلل ولا ملل؛ وما تلبيته لدعوة تمثيل الجزائر في مؤتمر كراتشي الاقتصادي إلا دليلا على ذلك، ثم ختم كلمته بالثناء على مساعي دولة باكستان والملك فاروق وعزام باشا والأمير عبد الكريم في تسهيل نقل جثماني الفقيدين؛ وزاد في الذكر أن شخصيات كثيرة بمصر كان في مقدمتها الأميرة سعيدة التمسست أن توضع باقات زهور بأسمائها على قبر الحمامي؛ ثم عرج على ذكر بريقة التعزية الواردة من المناضل والزعيم التونسي محي الدين القليبي مدير اللجنة التنفيذية للحزب الدستوري الحر التونسي؛ وختم تأيينه بتوجيه كلمة أخيرة إلى الفقيد جاء فيها: «لننتزعن حريتنا من الاستعمار البغيض أو نموت مثلك في ساحة النضال من أجلها»⁵⁰.

ثم تقدم الأستاذ توفيق المدني وألقى خطابا ضمّنه تعازيه الحارة إلى الشعب الجزائري باسم اللجنة التنفيذية للحزب الدستوري التونسي وتكلم عن حياة الفقيد وجهاده الميمون في سبيل استقلال بلدان المغرب العربي، وأقسم أن التفريق لن يجد بعد اليوم سبيلا إلى توهين صفوف هذا الاتحاد الوطني المقدس⁵¹. وبعد هذه الكلمة وري جثمانه الطاهر التراب.

آثاره: لم تسمح الظروف المادية والمعنوية التي عاشها الحمامي في السماح له بالتأليف والنشر، ولا حتى بكتابة مذكراته وهذا هو شأن كثير من العظماء كالأفغاني ومحمد عبده وشكيب أرسلان وابن باديس والإبراهيمي وغيرهم؛ ويبقى في نظرنا أن المؤلف الوحيد الذي تمكن الحمامي من تأليفه هو قصته التاريخية المشهورة باسم "إدريس" قصة اقتصد لها ما قيمته 40 جنية؛ وهو أكبر مبلغ جمعه في حياته حسب رواية صديقه القليبي. ونظرا لقيمة هذه القصة وما تكتسبه من طابع سياسي وتحرري رأيت من الضرورة بما كان الوقوف عندها بشيء من التفصيل.

استوحى الحمامي قصته واستقاها من تجربته النضالية بالمغرب أثناء تواجده في قلب المعركة إلى جانب كل من الأمير عبد المالك والأمير عبد الكريم الخطابي؛ كتبت هذه القصة باللغة الفرنسية بالعراق

49 - نفسه، ص. 103.

50 - نفسه، ص. 104.

51 - نفسه، ص. 104.

ثم نشرت فيما بعد بالقاهرة في شكل كتاب؛ مع تقديم للأمير عبد الكريم الخطابي باللغة العربية، مؤرخ في 23 جمادى الأولى 1367هـ / 3 أبريل 1948م⁵².

ومن أهم ما جاء في هذا التقديم: «وكتاب الأخ المجاهد الأستاذ علي الحمامي المغربي يكشف عن الكثير من أباطيل فرنسا الطائشة في المغرب... كما أن الكتاب لا يخفي بعض الأخطاء التي كانت سائدة في المغرب قبل الاحتلال، والتي كانت من البواعث الأكيدة على سقوطه في قبضة الاستعمار»⁵³. وتكمن أهمية هذه القصة في المواضيع التي تطرق إليها الحمامي؛ والتي يمكن حصرها في النقاط الآتية:

1- انتقد في العنصر الأول السياسة الاستعمارية القائمة على الاستغلال والسلب والنهب للأراضي والممتلكات، وطمس معالم الثقافة والهوية الوطنية للشعوب؛ كما استنكر سياسة الاندماج والإستيلاّب الثقافي الذي كانت ترمي من ورائه فرنسا إلى جعل المغاربة أحفادا للغال. هذا إلى جانب اضطهاد الصحافة الوطنية، ومحاربة اللغة العربية، وتنمية الخلافات الإقليمية والعرقية بين السكان؛ خصوصا العرب والبربر⁵⁴.

2- دراسة وتحليل المجتمع المغربي والوقوف على أسباب انحطاطه وتخلفه، ويشير هنا بالخصوص إلى واقع التعليم الأهلي المتدهور في جميع مراحله، ناهيك عن عدة عوامل أخرى سياسية واقتصادية واجتماعية؛ كما وجّه انتقاداته للطرق الصوفية التي رآها قد مهّدت بطريقة غير مباشرة لسياسة الاحتلال ودعمته⁵⁵.

3- قدّم مجموعة من الشروط التي يراها كفيلة بنهضة الشعوب العربية والإسلامية؛ والتي من أهمها نشر العلم وتجديد الفكر الإسلامي والمؤسسات السياسية، مستشهدا بآراء كبار المصلحين كجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، والإمام عبد الحميد بن باديس. وبناء على ذلك يمكن اعتبار الحمامي كغيره من المصلحين الذين عرفهم العالم العربي والإسلامي آنذاك، ونلمس ذلك من خلال الوقّع الذي أحدثه في نفوس معاصريه بعد حادث سقوط الطائرة التي تعرض لها سنة 1949، أثناء توجهه إلى

52 - يستفاد من الانتهاء من تأليف الكتاب المؤرخ بمدينة بغداد في ديسمبر 1941 - جويلية 1942، وصدور هذا الكتاب بمصر سنة 1942، كما أشار إلى ذلك أبو عمران الشيخ، من أن هناك تناقض كبير بين تاريخ صدور الكتاب والتقديم الذي وضعه له عبد الكريم الخطابي المؤرخ في القاهرة في 23 جمادى الأولى 1367هـ / 3 أبريل 1948. وعليه فتاريخ صدور الكتاب يحتاج في نظرنا إلى إعادة نظر؛ بمعنى صدوره كان بعد تقديم الخطابي له.

53 Aly, El Hammamy: Idris, entreprise nationale du livre, 2em édition, Alger, 1988, P. 6.

وللعلم أن هذه القصة تم نشرها في الجزائر باللغة الفرنسية في سنة 1976، في شكل كتاب يتكون من 396 ص، ضمن إصدارات المؤسسة الوطنية للكتاب، كتابا تضمن تقدما لأبي عمران الشيخ باللغة الفرنسية هو الآخر، وأعاد المؤسسة طبعه للمرة الثانية في سنة 1988، بنفس التقديم الأول المؤرخ في شهر سبتمبر 1976.

54 - أبو عمران، الشيخ: قضايا في الثقافة والتاريخ - علي الحمامي وقصة إدريس التاريخية -، منشورات تالة بالأبيار، الجزائر، 2003، ص-ص. 263 - 264.

55 - نفسه، ص. 264.

الباكستان لحضور فعاليات المؤتمر الاقتصادي الكبير؛ وما الكلمات التأبينية التي خصّه بها زعماء الحركة الوطنية المغاربية⁵⁶ عموما وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين خصوصا إلا دليلا على ذلك⁵⁷.

4- وفي الأخير يدعو إلى ضرورة تحقيق وحدة المغرب العربي، والحركات التحررية في سبيل الحصول على استقلالها؛ كما نجده يشيد بالحركة الوطنية في المغرب العربي وبالمقاومة المسلحة، وي طرح عدة شروط يراها كفيلة بتحقيق النصر على الأعداء، وهي الأخذ بالعلوم والتكنولوجيا الأوربية الحديثة، مستشهدا في ذلك بنهضة مصر الحديثة⁵⁸.

وقبل اختتام هذا المقال أود تقديم قراءة تاريخية في فكر الحمامي من خلال ما جاء في أقوال معاصريه ومرافقيه؛ قصد أخذ العبرة من نضاله المستميت في سبيل مناهضة الاستعمار الفرنسي والأوربي البغيض. وذلك وفق العناصر الآتية:

1- **قوة الإرادة والعزيمة:** فمن خلال تتبعنا لمسيرة حياة هذا المناضل الجزائري وجدناها مليئة بالأخطار والمهالك ومطاردة البوليس الاستعماري له منذ فترة شبابه إلى غاية استشهاده عبر خط زمني وجغرافي طويل وبعيد في الزمان والمكان: الجزائر-القاهرة-العودة إلى الجزائر-المغرب-فرنسا-روسيا-سوسرا-برلين-روما-الإسكندرية-روما-جدة-بغداد-القاهرة-باكستان حيث وافته المنية بها في حادث تحطم الطائرة- وأخيرا العودة الأخيرة إلى الجزائر ليدفن في ترابها الزكي مكلل بالنصر والشهادة في سبيل الوطن، كل هذا المسار قضاه في سبيل مناهضة الاستعمار الأوربي بمختلف أشكاله عموما والاستعمار الفرنسي بالخصوص؛ حيث لم يكل و لم يمل ولم يتخل عن واجبه في الدفاع عن هذا الوطن العزيز؛ وما أحوجنا اليوم إلى رجال وطنيين ومخلصين على شاكلة الحمامي يتحملون كل الصعوبات والأخطار في سبيل هذا الوطن.

2- **ثقافته الواسعة:** لا شك أن تجربة الحمامي وتنقلاته الواسعة في الشرق والغرب قد أكسبته ثقافة واسعة جدا؛ ولسانا فصيحاً حيث كان يكتب ويخطب في العديد من المنابر السياسية التحررية وبلغات عالمية شتى: الفرنسية، الإسبانية، الإيطالية، الروسية، الألمانية، التركية.. الخ، وما أحوج شباب اليوم وخصوصا الجيل المثقف إلى تعلم اللغات الأجنبية والانفتاح على الحضارات الأخرى والثقافات العالمية المتعددة مصداقا لقوله (ص): من تعلم لغة قوم آمن شهرهم. ومما جاء في شهادة عبد المجيد بن جلون حول ثقافة الحمامي الذي وصفه بالفيلسوف: «كان على اطلاع واسع ودراسة وافية فكان أشبه بأساتذة الغرب العظام الذين تتمثل فيهم وفي عقولهم دوائر معارف... كان فيلسوفا من فلاسفة المغرب

56 - مثل الزعيم التونسي محيي الدين القليبي، وعلال الفاسي من المغرب، وفرحات عباس، والبشير الإبراهيمي وغيرهم من الجزائر.

57 - مجموعة من المؤلفين: آثار محمد البشير الإبراهيمي - الأستاذ علي الحمامي -، ط. 1، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1402 هـ / 1981 م، ص-ص. 215_216.

58 - أبو عمران، الشيخ: قضايا في الثقافة والتاريخ، المرجع السابق، ص. 265.

العربي ثم فيلسوفا من فلاسفة الحياة، وقد هيأت له الحياة القاسية التي عاشها في بقاع مختلفة من أنحاء العالم بالإضافة إلى انكبابه على الدراسة المستمرة والمنظمة الواسعة النطاق؛ وبذلك تمثلت مآساته الحقيقية في أنه سبق عصره»⁵⁹.

3-تواضعه الكبير: لم يكن الحمامي يجري وراء الشهرة ولا وراء عدسات الكاميرا ولا حتى ذكر اسمه في الأعمال التي كان يقوم بها؛ ويبدو ذلك من خلال شهادة صديقه القليلي التي جاء فيها: كان يكره الشهرة ويأبى أن يذكر اسمه تحت مقاله أو تنشر صورته حذو تصريح أو ينعت بمجاهد أو زعيم، وكان يقول: يكفيني عن كل هذا أنني اتغنى بنشيد الحرية فيحييني، أني لم أعش طرفة عين ولم أحفل بها مرة ولو صدر مني ذلك لكنت أنايا ممقوتا في نظر نفسي قبل نظر الناس، إنما عشت لوطني وقومي وملتي ولفكرتي ومثلي الأعلى الذي أهيى به وهام به قبلي كثيرون حتى أفنوا نفوسهم به، ولم يكسب ثروة في حياته إلا مرة اقتصد فيها 40 جنيه وطبع بها كتاب إدريس. وأعتقد أن هذا التواضع لا يحتاج إلى أي تعليق.

4-فكرته وسعة أفق تفكيره في بناء اتحاد مغاربي متين: بهذا الخصوص يقول عنه صديقه محي الدين القليلي الذي وصفه بالرجل العظيم ما يلي: أما الأستاذ علي الحمامي فوطنه فكرته وعقيدته وضحايا الطغيان الاستعماري المشردون في أنحاء الأرض هم حزيه وجماعته، وعائلته هم الذين ألفهم وألفوه وعرفهم حق المعرفة وعرفوه، واطلعوا على ماضي أعماق نفسه فقدروه؛ فأنا أبكي من لا أحد يبكيه وأرثي من لا يجد من يرثيه وفاء لحق الصداقة والأخوة وتقديرا لمزايا وخلال هذا الرجل العظيم الذي فقدته المغرب الإسلامي في هذا الظرف الحرج الدقيق... ثم سرعان ما نجد الحمامي يقول على لسان صديقه في تصوره لإتحاد المغرب العربي: فالحمامي كان يؤمن بوحدة المغرب العربي من حدود مصر الغربية إلى شاطئ المحيط الأطلسي، وبهذا الخصوص يقول على لسان صديقه: "إن هذه القطعة قد اجتمع لسكانها من مقومات الوحدة ما لم يجتمع لغيرهم من الأقوام الذين نريد جمعهم بعد تكتلهم كتلا عظيمة تحت راية الإسلام"، يؤمن بهذه الفكرة ويعمل لها لا عمل الهزل ويدافع عنها أمام معارضيتها حتى يحتد.